أضواء على الأنشطة الاقتصادية في بلاد شنقيط (موريتانيا) من خلال النوازل الفقهية دراسة لنوازل القرنين (١٢-١٣هـ/١٨-١٩م)

إيمان رجب زكي تمام
قِسْم التاريخ الحديث والمعاصر ، كلية الآداب ، جامعة بني سويف ، مصْر .
البريد الإلكتروني: Emanra@art.bsu.edu.eg

ملخص البحث:

يرصد هذا البحث بعض الأنشطة الحرفية في بلاد شنقيط (موريتانيا) خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر للميلاد، استنادًا لما ورد في النوازل الفقهية من إشارات. وتبرز أهمية هذا الموضوع كونه يتعلق بالتأريخ للأنشطة الاقتصادية في إحدى المجتمعات الأفريقية إبان حقبة ما قبل الاستعمار من خلال مصادر محلية أصلية عاصرت الأحداث وعايشتها. ومن أسفٍ أن ركز الباحثون في التاريخ الأفريقي الحديث والمعاصر اهتمامهم على التأريخ للمجتمعات الأفريقية منذ بداية عهد الاستعمار الأوروبي نتيجة وفرة الوثائق الأوروبية، ولم يتطرق أغلبهم للحديث عن الفترة التي سبقت الاستعمار إلا في إشارات عابرة لم تكن سوى مدخلاً لدراسة العهد الاستعماري. ويعزو هذا إلى ندرة ما كتب عن تاريخ أفريقيا في تلك الحقبة واعتمدت تلك الكتابات بالأساس على الروايات الشفهية، والدراسات الأنثروبولوجية التي سعت سعيًا مقصودًا – خدمة للأهداف الإمبريالية– لعقد مقارنات بين وضعية المجتمع الأفريقي قبل الاستعمار وبعده، وبالتالي قدمت صورة موجهة وغير مكتملة، ولا يمكن الاطمئنان إليها في التأريخ للمجتمع الأفريقي قبل العهد الاستعماري.

في ضوء ذلك تحاول هذه الدراسة إلقاء حجر في المياه الراكدة، وحث الباحثين في التاريخ الأفريقي الحديث على الرجوع إلى بعض المصادر المحلية المهمة رغم عدم انتمائها للحقل التاريخي، ألا وهي النوازل الفقهية التي أولاها الباحثون في التاريخ الإسلامي أهمية كبرى، ورصدوا من خلالها أوضاع

المجتمع الأفريقي، بينما استبعدها الباحثون في التاريخ الحديث والمعاصر كمصدر تاريخي يمكن الاستفادة منه، ظنًا من البعض أن النوازل تشتمل فقط على معلومات فقهية.

وتكمن الإشكالية هنا في الخلط بين مفهومي الفتوى والنازلة، فالنازلة عبارة عن قضية تعرض على الفقهاء، وتعبر عن واقع معيش بالفعل، ومن ثمَّ فهي أضبط في التعبير من الفتوى التي تشمل سؤال الناس عن الأحكام الشرعية، سواء حدثت أم لم تحدث.

وفيما يتعلق ببلاد شنقيط نموذج هذه الدراسة، فقد أوردت النوازل عددًا من الإشارات المهمة التي يمكن من خلالها رصد بعض الحرف والأنشطة الاقتصادية، وكذلك أبرز المشاكل التي عانى منها الحرفيون، وهو ما ستبرزه هذه الدراسة.

الكلمات المفتاحية: بلاد شنقيط، موريتانيا، الأنشطة الحرفية، النوازل الفقهية، أفريقيا قبل الاستعمار

Lights on Economic Activities in Chinguetti (Mauritania) Accordint to Nawazil Fiqhiya A study of the Nawazil of the two centuries (12-13 AH / 18-19 AD)

Eman Ragab Zaki Tammam
Department of Modern and Contemporary History , Faculty of Arts, Beni-Suef University , Egypt .
E-mail : Emanra@art.bsu.edu.eg

Abstract :

This research examines some craft activities in the Chinguetti Countries (Mauritania) during the eighteenth and nineteenth centuries AD, based on the references mentioned in the Nawazil Fiqhiya. The importance of this topic is highlighted as it relates to the history of economic activities in one of the African societies during the pre-colonial era through indigenous local sources who lived through the events. Unfortunately, researchers in modern and contemporary African history have focused their attention on the history of African societies since the beginning of the European colonial era as a result of the abundance of European documents, and most of them did not address the pre-colonial period except in passing references that were only an introduction to the study of the colonial era. This is attributed to the scarcity of books on the history of Africa in that era, and those writings relied mainly on oral narratives and anthropological studies that sought intentional pursuit - in service of imperialist goals - to draw comparisons between the situation of African society before and after colonialism, and thus presented a directed and incomplete picture. The reassurance of it in the history of African society before the colonial era.

In light of this, this study tries to throw a stone into the stagnant waters, and urged researchers in modern African history to refer to some important local sources despite their lack of belonging to the historical field, namely the Nawazil Fiqhiya which researchers in Islamic

history gave great importance, and through which they monitored The conditions of African society, while researchers excluded them in modern and contemporary history as a historical source that can be used, thinking that some of the Nawazil include only jurisprudential information.

The problem here lies in the confusion between the concepts of the fatwa and the Nazilah, for the catastrophe is a case presented to the jurists, and it expresses the reality of actually living, and then it is more precise in expression than the fatwa that includes asking people about the legal rulings, whether they happen or not.

With regard to the Chinguetti countries, the model of this study, the Nawazil cited a number of important signs through which some crafts and economic activities could be monitored, as well as the most prominent problems that craftsmen suffered from, which will be highlighted in this study.

Key words: Chinguetti Countries, Mauritania, Craft Activities, Nawzil Fiqhiya, pre-colonial Africa

مقدمة

يرصد هذا البحث بعض الأنشطة الحرفية في بلاد شنقيط **Chinguetti**(موريتانيا) **Mauritania** خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر للميلاد، استنادًا لما ورد في النوازل الفقهية من إشارات. وتبرز أهمية هذا الموضوع كونه يتعلق بالتأريخ للأنشطة الاقتصادية في إحدى المجتمعات الأفريقية إبان حقبة ما قبل الاستعمار من خلال مصادر محلية أصلية عاصرت الأحداث وعايشتها، وتعد هي المصدر الوحيد في ذلك الوقت بالإضافة إلى كتب الرحلات خلال الفترة الزمنية للبحث. ومن أسفٍ أن الباحثين في التاريخ الأفريقي الحديث ركزوا اهتمامهم على التأريخ للمجتمعات الأفريقية منذ بداية عهد الاستعمار الأوروبي نتيجة وفرة الوثائق الأوروبية، ولم يتطرق أغلبهم للحديث عن الفترة التي سبقت الاستعمار إلا في إشارات عابرة لم تكن سوى مدخلاً لدراسة العهد الاستعماري. ويعزو هذا إلى ندرة ما كتب عن تاريخ أفريقيا الحديث في تلك الحقبة، فضلاً عن اعتماد تلك الكتابات بالأساس على الروايات الشفهية، والدراسات الأنثروبولوجية التي سعت سعيًا مقصودًا –خدمة للأهداف الإمبريالية– لعقد مقارنات بين وضعية المجتمع الأفريقي قبل الاستعمار وبعده، وبالتالي قدمت صورة موجهة وغير مكتملة، ولا يمكن الاطمئنان إليها في التأريخ للمجتمع الأفريقي قبل العهد الاستعماري.

ولذا تكمن **أهمية هذا الموضوع** في أنه يسعى لإلقاء حجر في المياه الراكدة، وحث الباحثين في التاريخ الأفريقي الحديث على الرجوع إلى بعض المصادر المحلية المهمة رغم عدم انتمائها للحقل التاريخي، ألا وهي النوازل الفقهية التي أولاها الباحثون في التاريخ الإسلامي أهمية كبرى، ورصدوا من خلالها أوضاع المجتمع الأفريقي، بينما استبعدها الباحثون في التاريخ الحديث كمصدر تاريخي يمكن الاستفادة منه، ظنًا من البعض أن النوازل تشتمل على معلومات فقهية فقط، إلا أن هذه النوازل تقدم معطيات تاريخية واقتصادية

واجتماعية تعين في رصد التاريخ الاجتماعي والاقتصادي للمجتمع الذي تتناوله.

وتتناول النوازل بنية المجتمع في القرى، وفي المدن، وهي عبارة عن أسئلة وجهها أفراد ينتمون لكافة طبقات المجتمع، وأجوبة الفقهاء والمفتين عن تلك الأسئلة. وتدور الأسئلة حول قضايا ترتبط بمختلف جوانب حياة الأفراد والجماعات، ثم أجوبة الفقهاء على هذه الأسئلة بمقتضى نصوص الشرع. ويعد سؤال النازلة هو الأهم بالنسبة للمؤرخ؛ إذ يساعد في التعرف على واقع المجتمع اقتصاديًا واجتماعيًا، أي أن السؤال يرسم صورة حقيقية عن الواقع الاقتصادي والاجتماعي، أما الجواب فيمثل الحل الشرعي للمشاكل.

وفيما يتعلق ببلاد شنقيط نموذج هذه الدراسة، فيمكن القول بأن إسهامات الحركة الفقهية الشنقيطية في مجال النوازل كانت نتاجًا – في بعض الأحيان– للمشاكل التي عانى منها الحرفيون، وبذلك فإن هذه النوازل وإن كانت تعبر عن وقوع بعض الظواهر السلبية على المستويين السياسي والاقتصادي، فضلاً عن الاجتماعي، فإنها في الوقت نفسه تبرهن على الحضور الواضح للمفتي والفقيه الشنقيطي، وحرصه على العمل على حل مشاكل المجتمع، فضلاً عن برهنتها على توجه الشنقيطيين نحو هذه الفئة المثقفة العاملة بالفقه، أملاً في إيجاد حل لمشكلاتهم، وسعيًا لمعرفة موقف الشريعة الإسلامية وطبيعة تعاملها مع مثل قضاياهم.

وقد أوردت هذه النوازل عددًا من المعطيات التاريخية المهمة التي يمكن من خلالها رصد بعض الحرف والأنشطة الاقتصادية، وكذلك أبرز المشاكل التي عانى منها الحرفيون، حيث تبرز النوازل الفقهية المشاكل التي تعرض لها حرفيو شنقيط، خلال فترة شهدت حالة من الفراغ والفوضى السياسية وانعدام الأمن، وسيطرة القبائل على المشهد السياسي والاقتصادي، وهي فترة القرنين الثاني عشر والثالث عشر للهجرة/ الثامن عشر والتاسع عشر للميلاد.

من ثم تكمن أهمية هذا الموضوع أيضًا في التعرف على وضع المجتمع القبلي في شنقيط، وما عرفه من انقسامات وتنافسات وصراعات قبلية كشفت عنها بجلاء النوازل التي عرضت على كبار الفقهاء والمفتين في المنطقة، وتلك الحالة تفسر ما آلت إليه أوضاع البلاد من تفكك واضطراب، وبالتالي وقعت فريسة سهلة –فيما بعد– أمام الأطماع الاستعمارية الفرنسية، إذ نجح القائد الفرنسي كوبولاني[١] **Coppolani** في إقناع الحكومة الفرنسية بالسيطرة على بلاد شنقيط، بعد أن لمس بنفسه الصراعات بين القبائل أثناء زيارته للمنطقة متنكرًا. ووضع في ديسمبر عام ١٨٩٩ مشروعًا لإنشاء موريتانيا الغربية التي تشمل موريتانيا الحالية، ثم تمت سيطرة فرنسا على البلاد بحلول عام ١٩٠٣[٢].

أما عن **أسباب اختيار الفترة الزمنية للدراسة**، فقد تم اختيار فترة القرنين الثامن عشر والتاسع عشر كحد زمني؛ لاعتبارين مهمين يتعلقان بطبيعة هذه الدراسة: اعتبار ثقافي وآخر اقتصادي، فمن حيث الاعتبار الأول يمثل هذان القرنان أهمية كبرى في مجال الفقه والفتوى الشنقيطية؛ لدرجة أن البعض يرى[٣] أن هذين القرنين يمثلان قمة عطاء الثقافة الشنقيطية بعد أن اكتملت سماتها البنيوية ومسارها العام الذي شهد تغيرات عدة، أبرزها هجرة عدد من العلماء والفقهاء الشناقطة من محطات ومراكز مدن القوافل الساحلية إلى الأرياف البدوية مع اكتمال انتشار قبائل بني حسان في المنطقة، وإحكام قبضتهم على سائر فئات المجتمع. أما الاعتبار الاقتصادي فيتمثل في أنه منذ القرن الثامن عشر يبدأ عهد الازدهار الاقتصادي الحقيقي لبلاد شنقيط، بعد أن أصبحت محطة رئيسة للقوافل التجارية، ومنطلقًا لركاب الحج الصحراوية[٤]، وانعكاس ذلك على الأنشطة الاقتصادية في البلاد. ومن ثم يمكن في ضوء الاعتبارين السابقين تكوين صورة أكثر واقعية عن المجتمع الشنقيطي وأنشطته الاقتصادية استنادًا للنوازل الفقهية التي عرفت زيادة مضطردة بتطور الحياة الاقتصادية والفكرية معًا؛ إذ أسهمت تلك النوازل في

الكشف عن جوانب مهمة حول الأوضاع الاقتصادية، التي ندر وجودها في المصادر التاريخية.

وتهدف هذه الورقة البحثية **للإجابة عن بعض التساؤلات**، منها سؤال رئيس: هل يمكن الاستفادة من كتب النوازل الفقهية في كتابة تاريخ أفريقيا الحديث خاصة مع غياب الوثائق؟ ثم تطرح هذه الورقة عددًا من الأسئلة الفرعية، أهمها: ما هي الصعوبات التي يواجهها الباحثون عند التعامل مع هذا النوع من المصادر؟ وما هي أبرز المصادر النوازلية التي يمكن الاستفادة منها في كتابة تاريخ أفريقيا الحديث؟ وكيف يمكن الاستفادة من كتب النوازل الشنقيطية في التأريخ للأنشطة الاقتصادية؟ وما هي أبرز المشاكل التي عاني منها حرفيو شنقيط؟

وللإجابة عن تلك الأسئلة ولكي يتم تغطية المقاصد التي تهدف إليها الدراسة –حسبما تتيحه النوازل من مادة– فقد قُسمت إلى أربعة مباحث رئيسة على النحو التالي:

المبحث الأول– أهمية النوازل في كتابة تاريخ أفريقيا الحديث.

المبحث الثاني– البنية السياسية والاجتماعية للمجتمع الشنقيطي خلال القرنين ١٢-١٣هـ/١٨-١٩م.

المبحث الثالث– أهم الأنشطة الاقتصادية في بلاد شنقيط من خلال النوازل.

المبحث الرابع– أبرز المشاكل التي عانى منها حرفيو شنقيط.